ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Humanizing Wars and Defending Islam The Role of Emir Abdelkader Al-Jazaery During 1860's Damascus Rebellion

* *Corresponding author: E-mail* :
Mahiralkhalili@iku.edu.iq
mahiralkhalili@gmail.com

Keywords:
Algerian
Islam
Sedition
Wars
Damascus
Prince

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 1 Sept 2024
Received in revised form 25 Nov 2024
Accepted 2 Dec 2024
Final Proofreading 2 Mar 2025
Available online 3 Mar 2025
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

Prince Abdul Qadir's contributions are numerous and diverse, and his writings continued to resonate both during his lifetime and after his death. Extensively documented various aspects of his qualities and life, certain sources are primarily influenced by political perspectives, while others are predominantly shaped by the principles of Sufism. This paper seeks to explore the humanistic perspectives of Prince that defined his existence, particularly through his interactions with both friends and adversaries. This research is divided into two chapters. The first focusses on the significant rebellion that happened in Lebanon and Syria in 1860, involving Christians, Muslims, and Druze. It examines the underlying causes and events, as well as the role of the prince during that period, who defended his position with a conviction deeply rooted in the principles of the Islamic faith. The subsequent chapters presented a fresh interpretation of several significant messages from the Prince, particularly those pertaining to sedition.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.32.3.8.2025.27

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

انسنة الحروب وتبييض وجه الاسلام دور الامير عبد القادر الجزائري اثناء فتنة دمشق ١٨٦٠

ماهر جبار الخليلي /كلية الامام الكاظم – بغداد

الخلاصة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد الطاهر الامين وال بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين.

المجاهد الانسان الامير عبد القادر الجزائري ، الرجل العالم، والعالم الزاهد، الفارس المغوار، والشاعر الرقيق، المفكر الثاقب، والحكيم العارف، له صولات وجولات في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وله مؤلفات وكتابات خلدته عالما كبيرا في الفكر والعلم والدين، وله قصائد لامعات في المدح والتصوف وغيرها.

صفات الامير كثيرة ومتعددة، والكتابات عنه لم تتوقف لا في حياته ولا بعد مماته وقد كتب عنه الكثير، اذ

لا تخلو زاوية من زوايا صفاته وحياته الا وكتب عنها، وفي بعض المصادر، غلبتْ الصفةُ السياسية عند الأمير عبد القادر الجزائري، وفي مصادر اخرى غلبت الصفة الصوفية والزهد.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد الطاهر الامين وال بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين.

المجاهد الانسان الامير عبد القادر الجزائري ، الرجل العالم، والعالم الزاهد، الفارس المغوار، والشاعر الرقيق، المفكر الثاقب، والحكيم العارف، له صولات وجولات في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وله مؤلفات وكتابات خلدته عالما كبيرا في الفكر والعلم والدين، وله قصائد لامعات في المدح والتصوف وغيرها.

صفات الامير كثيرة ومتعددة، والكتابات عنه لم تتوقف لا في حياته ولا بعد مماته وقد كتب عنه الكثير، اذ لا تخلو زاوية من زوايا صفاته وحياته الا وكتب عنها، وفي بعض المصادر، غلبتْ الصفةُ السياسية عند الأمير عبد القادر الجزائري، وفي مصادر اخرى غلبت الصفة الصوفية والزهد.

نحاول في هذه الورقة أن نستفيد من مواقف الامير الانسانية التي ميزت شخصيته في كل حياته، من خلال طريقة تعامله مع الاصدقاء او مع الخصوم، ويمكن القول ان المضمون الانساني يتجلى واضحا في الفتنة الكبيرة التي حدثت في دمشق ١٨٦٠، ومواقفه مع المسيحيين والقناصل الاوربيين بما فيهم الرهبان والراهبات، عندما استطاع حمايتهم من المسلمين الغاضبين الهائجين، اذ وصل عددهم الى اكثر من خمسة عشر الف، بما اثار اعجاب دول العالم فضلا عن المسلمين ليجسد بذلك حقيقة المعاني السامية في الدين الاسلامي فعلا لا قولا.

تناولت الدراسة مبحثين، اختص الاول بذكر جانب من تاريخ الفتنة الواسعة التي حدثت في لبنان وسوريا عام ١٨٦٠ بين المسيحيين والمسلمين من ناحية الاسباب والاحداث ودور الامير في تلك الايام ومواقفه العملية، ودفاعه الفكري النابع من صميم الدين الاسلامي، فيما تناول الثاني قراءة جديدة لبعض رسائل الامير المهمة التي تعلقت بالفتنة، محاولين الافادة الفكرية لحقيقة المضامين الانسانية المستوحاة من تلك الرسائل.

الكلمات المفتاحية: الجزائري–الإسلام–الفتنه–حروب–دمشق–الامير

المبحث الاول

فتنة عام ١٨٦٠ الاسباب والاحداث

ان تدهور اوضاع بلاد الشام وعدم قدرة الدولة العثمانية على حل المسائل العالقة، واهمها اوضاع المسيحيين في السلطنة، اعطى فرصة تاريخية للدول الاوربية بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية لاسيما جبل لبنان، اذ برزت الوساطات الاوربية من خلال قناصلهم في بيروت ودمشق وسفرائهم في الاستانة. وامام هذا الضغط الهائل كان على الباب العالي ان يتفاوض معهم لايجاد الحلول واعادة تنظيم المنطقة.

واصل الاوربيون ضغوطهم على الدولة العثمانية والتدخل في الشؤون الداخلية، فالبريطانيون استمالوا الدروز بعد صد الموارنة لهم وطردهم الارساليات الانجيلية، وبدؤوا بدعم بعض الزعماء الدروز الذي تقبلوا في مناطقهم هذه الارساليات، والباب العالي لا يخفى عليه نوايا البريطانيين، وهناك رواية قالها وزير عثماني لصديق اوربي " **ان مساندة انكلترا لنا ممتازة غير اننا نستند الى عصا من الشوك**" **(طربين، ١٩٦٨، صفحة ٦٩)**، والفرنسيون تدخلوا لتنفيذ سياستهم في لبنان واستمروا في دعم الموارنة بشكل واسع ماليا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا، اما الروس فقد كان همهم الحصول على موطىء قدم في لبنان من خلال رعايتهم للمسيح الارثوذكس، فضلا عن ان النمسا نافست فرنسا في دعم المسيح الكاثوليك واستغلت كل فرصة لتحقيق ذلك **(جابر، ١٩٨٨، صفحة ٤٠٦)**.

أحداث لبنان قبل عام ١٨٦٠:

في عام ١٨٥٤ ظهر على المسرح السياسي صراع بين اسرتي ابو اللمع واسرة ال خازن الدرزية وكان البطريرك بولس مسعد **(خليفة، ١٩٨٥، صفحة ١٣)** يمثل قمة الهرم الديني عند الموارنة، وترتب على تعيين بشير احمد ابو اللمع قائمقام في ١٣ اب ١٨٥٣ بداية لصراع جديد مع الدروز في جبل كسروان **(طربين، ١٩٦٨، صفحة ٦٩)**.

في ١٨ شباط ١٨٥٦ أعلن السلطان عبد المجيد (مراد، ١٩٩٢) بموجب الخط الهمايوني **(مصطفى، ١٩٨٢، صفحة ٤٠)** الغاء وضع أهل الذمة وإطلاق حرية العبادة وتحقيق المساواة المدنية والسياسية لكل اعضاء مجتمعات السلطنة عادا الجميع رعايا عثمانيين، وأفرادا متساويين كمواطنيين **(إتيين، ١٩٧٧، صفحة ٣١٢)**.

انتقد الامير عبد القادر الجزائري بمرارة بعض هذه الاصلاحات لانها تمس بالحقوق الاسلامية، ولكنه كان حذرا وله نظرة خاصة للسلطة العثمانية، والتي لاتخلوا من طابع انتقادي او استياء لمواقفها في الثورة الجزائرية، وبالمقابل كان هناك حذر وتوجس من العثمانيين تجاه المغاربة بشكل عام ومن الامير بشكل خاص **(إتيين، ١٩٧٧)**.

واجه القائمقام الماروني معارضة قوية من اسرة ال خازن الدرزية الذين عاشوا شبه مستقلين في كسروان وكانت اسرتهم اقوى نفوذا واوفر ثروة وجاها وشهرة من اسرة ابي اللمع، لذلك جابه الامير الجديد

عداوة رجال الدين المارونيين ايضا، الذين عدّوا الامير بشير مولودا درزيا وليس له اخلاص للحياة الدينية المارونية (**نوار، ١٩٧٨، صفحة ١٠٥**).

ومن ناحية اخرى نشب نزاع بين اتباع القائممقام الامير بشير احمد، الذين رفعوا شعار الاحمديين وبين الامير بشير عساف الذين أطلق عليهم بالعسافيين، وقد وجد العساف المساندة من القنصلية الانكليزية، في حين كان القائممقام يلقى المساندة من الباب العالي ومن القنصلية الفرنسية (**نوار، ١٩٧٨**).

اضطربت احوال البلاد خلال عامي ١٨٥٦ –١٨٥٧ بهذا النزاع العائلي من جهة والمذهبي والديني من جهة اخرى، اذ دب الضعف والخراب جميع انحاء بلاد الشام.

كانت التقارير للمراكز الفرنسية من دمشق وبيروت تركز خلال سنوات ١٨٥٦–١٨٦٠ على مشكلة الاقليات وتحركات القناصل الروس والانكليز الذين ادوا دورا فعالا في الشكاوي ضد العثمانيين، وبالتالي زعزعة مركز القائممقام المسيحي (**إتيين، ١٩٧٧، صفحة ٣١٣**).

ان السياسة الاجنبية ليست بمعزل عن هذه الاحداث، فالنزاع البريطاني الفرنسي على المصالح في بلاد الشام لاسيما في جبل لبنان اخذ بالتنامي لتكون النزاعات بالنيابة وبين الاطراف المتنازعة، وبحسب مساندة كل طرف من احدى الدولتين، ولايخفى في هذا المجال الدور العثماني الذي اعتمد على سياسة التحريف وبث الفتن، لغرض اضعاف الاطراف، ومحاولة ابقاء السلطة العثمانية الدور الاكبر دون ان تكون لديه القدرة على تحقيق ذلك.

الفتنة الكبيرة عام ١٨٦٠ (بيروت ودمشق):

بدأت الفتنة في شهر نيسان من عام ١٨٦٠ بشجار بين الصبيان الموارنة والدروزيين وسرعان ما توسعت لتمتد الى جميع المدن (**حتي، ١٩٧٢ ، صفحة ٥٣٠**) ، اذ شعر الدروز بأن الموارنة يستهدفونهم في مناطقهم كونهم اقلية في ظل مناطق الموارنة، وان تقارب الاخيرين مع فرنسا اخذ بعداً سياسياً واقتصادياً كبيراً، ولذلك فهناك هواجس لها مبرراتها، وبالمقابل شعر الموارنة القاطنين في المناطق الدرزية انهم في خطر شديد، وخلال اسابيع قليلة احرقت اكثر من ستين قرية من قرى المتن والشوف، واستمرت الثورة لتطال مدن دير القمر وراشيا وزحلة (**صليبي، ١٩٧٢، صفحة ١٤٣**).

كان مصير دير القمر قتل ٢٦٠٠ نسمة، وفي جزّين وجوارها قُتل ١٥٠٠ نسمة، وفي حاصبيا قُتل من الروم الأرثوذكس ١٠٠٠ نسمة، وفي راشيا هلك ٨٠٠ نسمة، وزحلة لم يَنجُ بيتٌ واحد فيها من الحريق، وقُتل في صيدا نحواً من ٣٠٠ نسمة. وبلغ عدد الضحايا أكثر من ١٢٠٠٠ قتيلاً، ما عدا الخسائر الفادحة في الاموال والممتلكات (**البيطار، ١٩٧٠، صفحة ٦٠**).

طارت شرارة الفتنة من لبنان، حيث استفاقت دمشق يوم ٩ تمّوز ١٨٦٠، على إشارة الصليب مرسومةً في الشوارع، وكان واضحا ان هناك ايدي تتلاعب بمصير المدينة، وأنّ الغاية من ذلك إشعال نار الفتنة الطائفيّة، ولذلك أهابوا بالوالي، أحمد باشا، أن يسارع إلى اتّخاذ الاحتياطات اللازمة، وكان حيّ النصارى في دمشق يشتمل على حوالى ٣٨٠٠ منزل مسيحيّ اشتُهروا بأعمالهم الحِرَفيّة، في حقل صياغة الذهب

والفضّة وحياكة الأقمشة، وبالتجارة على أنواعها، فاشتعلت نار الفتنة في دمشق، والتي كانت في غليان من جرّاء سياسة الدولة العثمانية تجاه ابناء هذه المدينة لاسيما من المسيحيين، وقد شجّع على الثورة ضدّ المسيحيّين في دمشق عدمُ مُعاقبة المجرمين في لبنان، وتواطؤ الموظّفين الأتراك مع القتلة، فأُحرق الحيّ المسيحيّ، وبلغ مجموع القتلى في العاصمة السوريّة ١١٠٠٠ قتيلاً **(البيطار، ١٩٧٠)**.

في هذه الاحوال والاهوال اجتمع قناصل الدول الاوربية بدمشق واعترضوا على الوالي احمد باشا لعدم اكتراثه لما يجري امامه، فماطلهم بالجواب ولم يحرك ساكنا ، وفي ذلك وايام الفتنة اجتمع الامير عبد القادر بالوالي مع وجود اعضاء مجلس الشورى وطالبهم بالمساعدة على اطفاء شرارة الثوار وبين لهم براهين مدعومة بايات قرانية واحاديث نبوية ضرورة محاربة المفسدين والمتطرفين والمعتدين **(شخاشيري، ١٩٠٨، صفحة ١٧٥)**.

موقف الامير عبد القادر اثناء الفتنة

كانت الانباء تتوارد عن قرب حدوث فتنة في دمشق قادمة شرارتها من لبنان، فجمع الامير بعض العلماء والوجهاء والاعيان من أهالي دمشق والمهاجرين المغاربة وخاطبهم قائلا " **ان الاديان وفي مقدمتها الدين الاسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها افواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو أن يكون له الى نفوسكم سبيلا** ". **(اباظة، ١٩٩٤، صفحة ١٦)**.

في هذا الخطاب تشعر بالنبرة الحماسية العالية عند الامير المنتفضة ضد الجهل والتطرف والتعصب الاعمى، ونوعية الكلمات مختارة بتمعن وحسن صياغة تتعلق بالخطاب العقلي ومستوى الاشخاص المخاطبين الذين يعدون من علية القوم ولكنهم وفق تصور الامير تسافلوا وتدنوا في مستوى تفكيرهم مع الحثالة والطائشين وواكبوا تصرفاتهم غير المسؤولة غير المطابقة لاحكام الشريعة المحمدية محذرا اياهم من وساوس الشيطان الذي يتحكم بالعقول والعواطف ويجر الانسان الى مواقع الرذيلة والدمار والخراب والنفوس البائسة.

كان الامير يحاول درء الفتنة بالخطاب والتواصل مع الاعيان والوجهاء بل كان لايترك فرصة الا وكان يدافع عن مباديء السلام وعدم الاعتداء على النصارى واهل الذمة، وقد اجتمع مع الوالي مرات عديدة، يؤنبه ويحثه على السكينة والركون الى السلام وترك النصارى وشأنهم، وبين للجميع العواقب الوخيمة التي تترتب على اشعال الفتنة، وبذل قصارى جهده في اظهار عدم جواز قتل المسيحيين شرعا ودينا **(شخاشيري، ١٩٠٨، صفحة ١٧٤)**.

مع تحذير الامير انطلقت الفتنة كما اسلفنا يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة ١٢٧٦هـ الموافق ٩ تموز ١٨٦٠م وبقي الامير اربعة عشر يوما متوالية لم يترك فيها لحظة عن نصرة المظلومين وانقاذهم من القتل، وأشرف على تطبيب الجرحى وقام على تعزية الثكالى والارامل واليتامى وكان يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على حماهم من الناس **(اباظة، ١٩٩٤، صفحة ١٧)**.

بلغ عدد الذين انقذهم الامير من الموت والقتل والدمار والعذاب نحوا من خمسة عشر الف شخص من القناصل وأعيان النصارى والرهبان والراهبات، ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم الى قلعة المدينة، كما احتمى بحي السويقة وبخان المغاربة نصارى الميدان وكان نتيجة ذلك مقتل عدد من المغاربة هناك كان بينهم فضلاء رافقوا الامير في جهاده وهاجروا معه من الجزائر (**اباظة، ١٩٩٤**).

لم يزل الامير يعاني من هذه الفتنة الى ان حضر الى دمشق فؤاد باشا وزير الخارجية العثماني، وأجرى فيها الاحكام العرفية فقبض على زمام الامور، اذ أدرك أن الاوضاع متأزمة، وان الفرنسيين والاوربيين على الابواب، بمعنى ان أي تأخير في الإجراءات قد يعرض الدولة الى كوارث جديدة لاطاقة لتحملها في ظرفها الصعب، فلابد من تحرك سياسي وعسكري سريع لاعادة النظام، وقد اتخذ إجراءات صارمة تجاه من شارك في المذابح ضد النصارى في دمشق (**اباظة، ١٩٩٤**).

شكل فؤاد باشا محكمة عسكرية وأعلن الأحكام العرفية وقسم الجنايات والتهم على ثلاثة أقسام (سالب، ومهيج، وقاتل) وحكم على مئة واحد عشر ضابطا وجنديا عثمانيا بالموت رميا بالرصاص وعلق خمسين آخرين على أعمدة المشانق بما فيهم والي دمشق المشير احمد باشا، واعتقل اكابر أعيان دمشق كالمفتي وكبار الشيوخ المتهمين في ضلوعهم بتلك الأحداث من جهة أخرى، أمر فؤاد باشا بجمع المسلوبات من سكان دمشق وتسليمها إلى مأمورين من قبله، واصدر أوامره بتفتيش بيوت المسلمين مهددا بالعقاب الصارم إذا وجد شيئا من متاع النصارى، فألقى هذا التهديد الرعب في قلوب المسلمين الذين اخذوا يطرحون ما عندهم على الطرقات، وكان اليهود يلتقطون هذه الأشياء ويشترون أشياء ثمينة بأسعار تافهة في حين لم يتجاسر نصراني على الخروج من بيته (**شخاشيري، ١٩٠٨، صفحة ١٧٤**).

أرسلت فرنسا حملة عسكرية بقيادة الجنرال هوتبول (Beaufort.d 'Hautpoul)، وانتشرت من تموز ١٨٦٠ الى حزيران ١٨٦١ تحت عنوان الدوافع الانسانية، كما بعثت بريطانيا وروسيا بعض المراكب الحربية منتظرين ماسيفعله وزير الخارجية فؤاد باشا، وفي اثناء ذلك حصل خلاف بين الاخير والجنرال الفرنسي فبعث الجنرال رسولا الى الامير عبد القادر يخبره انه قرر ضرب دمشق من جبال الصالحية ونصحه بالخروج والنجاة بأهله (**مشاقة، ١٩٠٨، صفحة ١٧٤**).

لمّا بلغ الأمير أن قائد الحملة الفرنسية الجنرال بوفور يريد قصف دمشق من الصالحيّة، تمهيدًا لدخولها، بعث رسالة الى الجنرال بوفور يطلب منه أن يوافيه في البقاع، وتوجّه الأمير ليلاً ومعه بعض أتباعه إلى معسكر الجيش الفرنسي واجتمع بالجنرال وأظهرَ له سوء عاقبة ما اعتمد عليه، فأصرَّ الجنرال على قصف دمشق ودخولها، فهدَّدهُ الأمير وقال له " **إذا قصفتم دمشق أو حاولتم دخولها فإن العهود التي بيني وبينكم تصبح لاغية، وسأكون أوّل المدافعين والمقاومين لأي حملة فرنسية تهاجم البلاد، وسأعود للجزائر وأباشر الجهاد هناك من جديد**" (الحسني، ١٩٠٣، صفحة ٩٥) فعندها عدل القائد الفرنسي عن خططه.

هكذا استطاع الأمير عبد القادر بحنكته، وبُعْدِ نظره، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، أن يحافظ على تماسك الدولة العثمانية، ويُبطل المخطط الأوربي لاقتطاع بلاد الشام منها، ويمنع جيوش فرنسا من دخولها، ويعطي مثلا رائعا للمسلم الحقيقي الملتزم بالتعاليم الاسلامية الحقة، النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد عكس الامير صورة بيضاء ناصعة عن حقيقة الدين الاسلامي بالافعال لا بالاقوال، كما يتشدق ويصرخ بعض رجال الدين في الخطب الرنانة والصوت العالي المرتفع وشعارات زائفة تنتهي مع اول اختبار حقيقي لتلك النفوس المريضة.

عرف عن الأمير بأنه رجل علم ورأي وصاحب فكر ومنهج، كما عرف بأنه رجل حرب وحكم وسياسة، ومن هذه النفاذة الثقافية دلف إليه العلماء وطلاب المعرفة في منفاه بفرنسا، وكثرت محاوراته ومراسلاته، وقد احتكم إليه بعض الفرنسيين حول مسألة الحضر والبادية وأيهما يفضل؟ فعبر عن تفضيله للبادية بأدلة معقولة وأخرى مقبولة، ورأى أن أهل البادية أوفى عهدا،وأشجع نفسا وأكثر احتمالًا وأطول أعمارا وأشف حسا وأصدق إلهاما. وقد واكبت قدرته البيانية المعهودة خبرة دبلوماسية جديدة اكتسبها في أثناء إقامته بالمنفى في فرنسا، ومع ذلك فقد ظل إعجابه بمظاهر المدنية محدودا، لأنه كان مركزا ومهتما على الأخلاق، وفي المرتبة الثانية التقدم العلمي والصناعي ووسائلهما، وقد سبق الأمير عبد القادر عصره إلى منازلة الغربيين حول محور من محاور الصراع بين الشرق والغرب، وهو الأخلاق.

تمتع الأمير بسمعة كبيرة ملأت الافاق، وزينتها الحكمة والاخلاق، واعترف بها الاعلام، ودانت لها الخصوم بشهادات تاريخية خالدة، وما أوردته بعض المصادر خير دليل وتوثيق ،من لوم مجلس النواب الفرنسي للجنرال لامورسييه القائد الفرنسي الذي كان يقاتل الامير في الجزائر، والذي قبل تسليم الأمير وفق شروط الاخير معتبرين ذلك خطأ كبيرا، فرد الجنرال على المجلس بالقول: " **إن هذا اللوم الشديد وقع علي، بجنحي للسلم، في موضعٍ، يجب فيه الحرب، بزعمكم !! وأنا أتحقق: أني لو ركبت الخطر، بالزحف على عبد القادر، ما رجعت إلا بخيمته وسجادته !! وإنه ليذهب إلى الصحراء، بحيث لا يمكنني أن أصل إليه. وهذا، أكيد عندي، من أن يقع في يدي لأن عبد القادر، ذو صلابة في دينه، مشتهر: بالصدق والأمانة في وطنه، شديد التمسك بمبادئه. وهذا، الأمر الأوحد، والسبب الأعظم الداعي لاجتماع القلوب عليه. وإن مبدأه الفريد: وهو الذي شهرته في جميع الجهات. ولاشك أن الظفر الذي حصل للرجل، الذي حاربناه، في وقائعه، هو ثمرة ما قررناه. ومن كان هذا شأنه وسيرته، فلا بد وأن يحدث خطراً عظيماً، إن تُرك في بلاده. وأظن أني ما سلكت، إلا جادة الصواب، ومع هذا فأرجعوه إلى محله، مع القوة التي كانت معه فقط. وأمسكوه عنوة !! وأنا، والحاكم العام ما قبلنا تسليمه إلا على شروطه، إلا أننا اخترنا: راحة فرنسا، وعساكرها التي أضنكها التعب، وكثرة المصارف من غير طائل نحصل عليه، من جهة الأمير، والقبض عليه. فسكتوا، وانفض المجلس**" (خيربك، ٢٠١٢، صفحة ٤٣٢).

والشهادة الاخرى للعقيد شارل هنري تشرشل عندما قال "**هناك شاب مسلم عربي كرس نفسه للعمل الديني في معزل عن الناس. ولكن ازمة حلت ببلاده كان فيها مصيرها. فناداه الواجب من معزله ووضعه على راس الاحداث. وانبعثت بذور عبقريته الكامنة دفعة واحدة في كامل النضج. وسطع نجمه في عظمة لاتقارن كداعية وزعيم للجهاد ضد اعتداء دولة مسيحية وصد جيوش هذه الدولة مدة خمس عشرة سنة، بقوة ادنى بكثير من قوتها، ولم يجندها الا بحماسه الناري الذي عرف كيف يستخدمه للحفاظ عليها، وقد ارغم عدوه مرتين ان يعترف له بامتيازات في بنود الصلح ، وان يحييه بالقاب السيادة**" وهذا وصف عالي الدقة ثاقب الرؤية في شخصية الامير، ويزيد في القول عن حسن الادارة والتنظيم عند الامير "**وفي نفس الوقت كان يقيم ويكون ادارة داخلية كانت بسرعة تحل محل الفوضى المتناهية والاضطراب، وقد اصبحت مثالا للقانون والنظام والعدل، ووضع الاسس لدولة اسلامية. واعطى في شخصه لرعاياه نموذجا للشجاعة والقوة والنشاط والمثابرة والورع والحماسة " (تشرشل، ١٩٧١، صفحة ٢٩٨).**

كان الأمير شخصية صوفية متحررة من قيود التقليد والتبعية، ومتطلع إلى صفاء الشريعة الإسلامية وجوهرها النقي، فقد آمن بالتصوف طريقًا لتجديد الفهم الديني، وأسلوبا للحياة يمتزج فيها العمل بالنظر والنظرية بالتطبيق، وينطلق الامير من فكرة أن الحقيقة ليست وقفاً على جماعة معينة أو فرد محدد، إنما هي ثمرة جهد البشر بمعزل عن اعتقادهم وانتمائهم الإثني.

فالعالِم لا يهمُّه ما إذا كان الحق صادراً عمَّن حَسُن الاعتقادُ بهم أم لا، ذلك أن الحق يُعرَف بالدليل لا بالتقليد. وفي ضوء هذه الفكرة يقسم الجزائري الناس إلى قسمين: قسم عالِم مُسعِد لنفسه ومُسعِد لغيره – وهو الذي عرف الحقَّ بالدليل لا بالتقليد، وقسم مُهلِك لنفسه ومُهلِك لغيره – وهو الذي قلَّد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده ، ولذا فله حكمة مهمة "**بهيمة تُقاد أفضل من مقلِّد ينقاد**".

وفقا لهذه الافكار والاراء يكون الامير قد ترجم القيم والمباديء الاسلامية الى سياسة واقعية، ورسخ منهج العقل والفعل، المنطق والعمل، التخطيط والتنفيذ، الاقوال والافعال. وكانت أهدافه الاساسية توجيه الناس نحو الايماني الحقيقي اولا والسعي الى خدمة الانسانية ثانيا، وهذه المضامين في افكار واراء الامير مترسخة ومتناسقة ومتكاملة في كتاباته ومؤلفاته، ثم تجدها حقيقة ساطعة في سيرته وافعاله وفي ذلك دروس وعبر كبيرة لمن يعتبر ويتعظ ، ورد على من يدعي ان فئة الانبياء والاولياء قد باركتهم الارادة الالهية ولايمكن الوصول الى مراتبهم وزهدهم وكراماتهم، فقد اثبت الامير وقبله وبعده الكثير ان الانسان قادر على ترويض نفسه وتحصين روحه من خلال الصدق والايمان، عندها سيجد الله موفقا وراعيا وناصرا .

المبحث الثاني

مضامين رسائل الامير الانسانية

ترك لنا الامير عبد القادر الجزائري تراثا نوعيا وراقيا من الرسائل الادبية المعبرة والهادفة، والتي تحتوي على كم كبير ومميز من الافكار والاراء الاسلامية الصحيحة والمسؤولة والتي تمثل في مضمونها جوهر الاسلام وعين ماقصده رسول الانسانية والمبعوث رحمة للعالمين النبي محمد صلى الله عليه واله.

استند الامير في افكاره وارائه ومضامين عبادته الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مؤمنا بان الكتب السماوية مصدرها واحد وهو الله جل وعلا، وان الرسل على اختلافهم هدفهم واحد، هو الدعوة الى الواحد الاحد، وفي ذلك قال "**وطريقة توحيدنا ماهي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسلة، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات العارفين، وإن لم يصدقوا الجمهور والعموم، فعند الله تجتمع الخصوم**" **(الجزائري، ٢٠٠٤، صفحة ٦).**

في محور البحث الثاني قراءة لبعض رسائل الامير من خلال محتواها الانساني وافكارها واهدافها وابعادها السياسية والاجتماعية والدينية، وفق نظرته الاسلامية التي عناها في القول اعلاه، والتي اشار فيها ان افكاره فريدة التفسير والمضمون ولكنها مطابقة لعهد الراشدين والتابعين، متحديا المخالفين وان كثر عددهم من الجمهور ويكون الله الحاكم والقاضي والفيصل بين المختلفين يوم التلاق، وفي ذلك القول ثقة كبيرة وايمان عميق ويقين صادق.

تم اختيار ثلاث رسائل مهمة تمثل كل واحدة الجهة المقصودة والهدف المنشود، لان الواقع يؤكد العمق الكبير لتراث الامير وسعة علاقاته وكثرة الرسائل التي بعثت اليه ورد عليها فضلا عن التي كتبها مبتدئا .

الرسالة الاولى

بخط الأمير عبد القادر نشرت في صحيفة نيويورك تايمز بعد ٩ أيام فقط من اندلاع المواجهات الطائفية بدمشق تموز ١٨٦٠، يلخص بها ما حدث ويستعرض المجريات والأحداث وما قام به من حماية المسيحيين وتأمينهم.

صدرت يوم ٢٠ تموز ١٨٦٠

" دمشق ٢٧ ذي الجة ١٢٧٠ للهجرة ... ١٨ تموز ١٨٦٠

أعزائي الأصدقاء الأفاضل

أتمنى لقائكم قريبا وأدعو الله أن يحفظكم, لقد تسلمت رسالتكم الثمينة والمؤرخة في ١٣ تموز المتعلقة بما حدث للمسيحيين بدمشق وللاجابة, لقد علمتم انه في يوم الأثنين ٩ تموز حوالي الساعة الثانية ظهرا أندلعت الحرب نتيجة معاقبة بعض المسلمين لتعرضهم وأساءتهم للمسيحيين, هؤلاء المسلمين هرعوا في توتر شديد مسلحين للعظم الى القسم المسيحي من المدينة وبدأوا القتل والحرق

والنهب في أن واحد, وساعدهم في ذلك الجنود الأتراك الذين أدعو محاولة وقف الأضطرابات و لكنهم كانوا يغذون ويشاركون المشاغبين في القتل والنهب والسلب".

عندما نقرأ هذه الرسالة بتمعن نجد فيها مضامين وافكار مهمة ذات بعد انساني وفكري واخلاقي، ومن اجل التوضيح سوف يتم قراءة فقراتها مجزأة .

نبدأ من بداية الفقرة الاولى وفيه ان البدء بالكلام عند الامير عند مخاطبة الاديان الاخرى لايبدأ البداية الاسلامية المعتادة من حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله وهذا دليل على ان للامير بعدا فكريا عميقا، اذ يريد من ذلك التقرب الى الاخر بطريقته وبالاسلوب الذي يرغب فيه الاخر لا بالاسلوب القسري الاستعلائي النابع من فكرة انا الاصح ويجب اقنعك بما اؤمن وليس باسلوب الحوار والاخذ والرد والمناقشة.

إن الثقافة الغربية خرجت من اطار المقدس والمؤله والانغلاق منذ عصر النهضة والتنوير منذ مئات السنين، بل ان كل شيء عندهم مشكوك فيه حتى يثبته العقل والمنطق، ولاتثيرهم الغيبيات والعواطف التي يعدونها من الخيال، والخطاب الديني بالاسلوب الاسلامي، يثير عندهم نظرة المتخلف والمتأخر والمنغلق، ولا يقرؤون الوجه الذي يريده الكاتب الاسلامي، ولذلك فان الامير قرأ افكارهم وفهم دوافعهم وطريقتهم ، وعمل وفق الاية القرانية " **وجادلهم بالتي هي احسن**" ، والانسان الغربي لايناقش ولايجادل الا حين تحاوره بطريقته هو القائمة على النقاش العقلي والمنطقي وفق المحسوس والملموس والواقع.

الامر الاخر في هذا الجزء، ان كلماته كانت متساوية الوصف لكل جهة من جهات النزاع، وهم ثلاثة المسلمون والمسيحيون والاتراك، ولكل جعل له دور في الاحداث، ولكنه استدرك في اخر الجزء ليصف الافراد الذين شاركوا بهذا الاعمال بانهم مشاغبين في دلالة على ان ذلك ليس من الاسلام في شيء، ثم اتهم الاتراك بانهم أسهموا وشاركوا في الاحداث وفي ذلك تشخيص دقيق وشجاعة كبيرة ورغبة في ايجاد الحلول المناسبة.

ثم يقول " **بعض حكماء المسلمين قاموا بمحاولة أيقاف هذه الأفعال ولكن الضباط الأتراك لم يرغبو في أحلال السلام وعلى العكس أمروا جنودهم بملاحقة المسيحيين البائسين ودعموهم بأفواج من المجرمين من كل طائفة.**

بعد أن وصلت الأمور الى هذا الحد الخطير لم أدخر وقتا وجهدا لحماية هؤلاء البؤساء, وذهبت مسلحا بقوة أتباعي الجزائريين وأستطعنا ان ننقذ الأرواح من رجال ونساء وأطفال ونرجع بهم سالمين الى بر الأمان".

الجزء الثاني يتحول فيه الامير الى حكمة بعض رجال المسلمين الذين بذلوا جهودا كبيرة في الدفاع عن الانسان اولا وعن البعد الاخلاقي في الدين الاسلامي ثانيا، لانهم بذلك اثبتوا ان الدين ليس بالنصوص والاقوال والشعارات وانما الدين بالافعال والتصرفات. والاسلام لايحرض على العنف والانتقام

والثأر والتشفي والتمثيل والاستهزاء، بقدر دعوته الى السلام والامان والرحمة والمغفرة والتسامح والتعايش وحب الناس وحب الخير وعمله .

ثم يستمر بالحديث في رسالته " **هذه الحالة أستمرت ليومي الأثنين والثلاثاء حيث لم يتوقف المشاغبون عن القتل والحرق والتضحية بالمسيحيين ,من دون أبداء اي عون من جهة الوالي لهؤلاء المسيحيون. لقد بعثت للسيد لانوس القنصل الفرنسي بدمشق وفرنسسيين أخرين بقوة لحمايتهم من غضب تلك العصابات.**

وفي يوم الأربعاء وفي ظل الأدعاء بمقتل أثنين من المسلمين وهذا ليس بالسبب عادت الحرب للأشتعال, ووالي دمشق عدمه ووجوده واحد, ومن جهتي فأنا اعبر عن شديد الأسف للمأساة التي حلت بالمسيحيين من حرق وتدمير لمناطقهم وبيوتهم.

لا نعرف تماما عدد القتلى ولكنهم يقدرون بحوالي ٣,٣٠٠ وكل المسيحييون والأوربيون الذين أحتموا بمنزلي هم سالمون, أمنت لهم جميع أحتياجاتهم وأدعو الله أن يحفظ وينجي المسيحيين البؤساء من هؤلاء غلاة المتعصبين.عبد القادر بن محي الدين" (الحسني، ١٩٠٣، الصفحات ٩٦-٩٨)

في الجزء الثالث أوضح الامير لاصدقائه ماقام به من دور في تلك الاحداث وكيف استطاع حماية عدد كبير من المسيحيين في داره مع بعض رجاله، قال تعالى " **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** " **التوبة (٦)** وهذه الاية في الكافر الذي يطلب الاجارة فكيف بأهل الكتاب الذين اوصى الله بهم خيرا، اذ قال تعالى " **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** " **العنكبوت (٤٦)** ، وواضح جدا ان الله سبحانه وتعالى دعا المسلمين الى الحسنى في التعامل مع اهل الكتاب، لان الاله واحد عند الفريقين والجميع مسلّمٌ وجهه لله عز وجل، وفي ظل هذه المباديء تحرك الامير وحمى المسيحيين من بطش المشاغبين الذي شوهوا صورة الاسلام، وعكسوا جهلهم ورغبتهم في السلب والنهب على الدين الاسلامي.

إن وصف الامير للجماهير الثائرة بالمشاغبين مرة وغلاة المتعصبين مرة ثانية يعطينا دليلا واضحا على عمق الروح الانسانية التي يتمتع بها، ومدى غضبه وثورته عليهم لان التعصب والتطرف ليس من الاسلام في شيء، بل ان الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء لمحاربة التطرف والغلو والعادات الجاهلية، ولذلك نجده يصف المسيحيين بالبؤساء ويدعو لهم بالخلاص من هذه الشدة.

الرسالة الثانية

رسالة من قائد الثورة في الداغستان والشيشان الشيخ (محمد شامل الداغستاني) الى الامير عبد القادر ونصّها:

" **..إلى من اشتهر بين الخواص والعوام ، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان، واستأصل شجرة العدوان، رأسها كأنه رأس شيطان، المحبّ المخلص السيد عبد**

القادر المنصف؛ السلام عليكم وبعد: فقد قرع سمعي ما تمجّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، من أنه وقع هناك بين المسلمين والمُعاهَدِين ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام، وربما كان يُفضي إلى امتداد العناد بين العباد في تلك البلاد، ولذلك عند سماعه اقشعرّ منه جلدي، وعبست طلاقة وجهي، وقلتُ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس)، وقد تعجبتُ كيف عميَ من أراد الخوض في تلك الفتنة من الولاة عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا من ظلم مُعَاهَدًا أو انتقصه حقّه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة)، وهو حديث حسن، ثمّ لما سمعتُ أنّك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدّى حدود الله تعالى وأخذت قصب السبق في مضمار الثناء واستحقيت لذلك، رضيتُ عنك والله تعالى يرضيك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووضعتَ من يتجرّأ على سنّته بالمخالفة نعوذ بالله من تجاوز حدود الله، ولكوني ممتلأً بالرضى عنك كتبتُ إليك إعلاماً بذلك. والسلام. حرر سنة ١٢٧٧هـ شامل الغريب".

فأجابه الأمير برسالة جاء فيها: " **الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه من النّبيين والمرسلين، إنه من الفقير إلى مولاه الغني عبد القادر بن محيي الدين الحسني إلى الأخ في الله تعالى والمُحب من أجله الإمام شامل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل وسلام الله عليكم ورحمته وبعد: فإنه وصلني الأعز كتابكم وسرّني الألذ خطابكم، والذي بلغكم عنّا ورضيتم به منّا من حماية أهل الذمة والعهد، والذَّب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، هو كما في كريم علمكم مقتضى أوامر الشريعة السّنية، والمروءة الإنسانية، فإنّ شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق، فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لائتلاف اشتمال الأطواق على الأعناق. والبغيُ في كل الملل مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم ولكن:**

يُقضى على المرءِ في أيام محنته ** حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسنِ**

فإنّا لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدِّين وقلّة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظنُّ من لا علم له أنّ أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبَلادة والجفوة، فصبرٌ جميل والله المستعان ..... حرر في أول جمادى الأولى ١٢٧٧" (سنو، ١٩٨٥، الصفحات ٢٥-٤٤)

يلاحظ في رسالة الشيخ محمد شامل بعدها الانساني ومطابقة ارائه مع اراء الامير عبد القادر مدعومة بايات قرانية واحاديث نبوية، وفيها تقريع وشجب لافعال المشاغبين الذي وصفهم بانهم لايمثلون الاسلام، ثم اعطت الرسالة صورة واضحة عن مدى انتشار اخبار الامير في انحاء المعمورة، وعمق التاثير الذي احدثه موقف الامير من احداث فتنة تموز ١٨٦٠ في دمشق، واصفا الامير بانه احيا سنن النبي محمد صلى الله عليه واله الذي ارسل رحمة للعالمين.

كان رد الامير في غاية الدقة والجمال مبتدئا بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وهو الاسلوب المعتاد في كتابة الرسائل والكتب الاسلامية لان المخاطب هو مسلم، ثم يتواضع امام الكلمات الفخمة

والتعظيمية التي خوطب بها في تلك الحقبة لذلك كتب من "الفقير الى مولاه الغني" في اشارة الى عمق ايمانه بالله سبحانه وتعالى وتصغير افعاله الى الادنى لكي لايصاب بالعجب والفخر والتعالي والتكبر وهي عادة من صفات العلماء الكبار والزهاد الاتقياء.

وصف الامير افعاله بانها من اساسيات الدين والشريعة التي بعثت متممة لمكارم الاخلاق، بل ان الاسلام يشتمل على المحامد كلها وعليه يجب ان تنعكس على السلوك، وان البغي مهما كان فاعله مذموم في كل الاديان والملل، ونتائجه وخيمة وكبيرة على الدين وعلى الاوطان، ولذلك فقد أكد الامير على محاسبة مرتكبي البغي لانه سعي في خراب وتدمير المباديء الاسلامية، اذ اوجب القاء اللوم على المشاغبين حتى لا يعطى شرعية لمثل تلك التصرفات.

في نهاية الرسالة شكا الامير للداغستاني من قلة الناصر والمعين لاهل الحق، في اشارة الى ان اغلب رجال الدين في عصره لاينصرون الحق بقدر نصرتهم للجهل وللقراءات السطحية للدين، حتى يصل في وصفه الى ان اهل الدين الحقيقيين فقدوا، ولم نعد نجدهم، وفي ذلك يتضح مدى الالم والمعاناة التي عاشها الامير مع هذه المجموعة من الناس.

الجزء الاخير في الرسالة شخص بدقة ان قلة الخبرة عند علماء الدين وانتشار التصرفات والافعال للجهلاء من الناس مدعومة بفتاوى واراء دينية، عكست صورة مشوهة عن الدين الاسلامي، وأصبح غير المسلم مقتنعا ان الاصل في الدين الاسلامي هو الغلظة والقسوة والجفاء والبلادة، وهي صفات ابعد ماتكون عن الذي اراده رسول الانسانية ونبي الرحمة محمد الطاهر الامين صلى الله عليه واله.

الرسالة الثالثة

بلغتْ أخبارُ واقعة دمشق الهائلة حَضْرَةَ الخليفة العثماني عبد المجيد خان، وما صنعه الأمير في سبيل طاعة الخليفة وأداء واجب خدمته، أظهر الخليفة رضاه العالي بفعله وأنعم عليه بالنيشان المجيدي العالي الشان من الرتبة الأولى وأرفق معه فَرَمَانًا وحملهما إلى الأمير الصدرُ الأعظم علي باشا، وإليكم نصّ الفرمان:

" قد أحاط علمي الشريف السلطاني بحال الحميّة الدينيّة الثابتة في أصل فطرة الأمير عبد القادر الجزائري، زيدَ فضلُه، وخلوصه الأكيد الوطيد لطرف دولتي العليّة، وقد اضطره كل منهما لاستعمال الهمّة والغيرة الكليّة الفائدة في الخدمة المرغوبة وهي تخليص عدد كثير من تبعة دولتي العليّة الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين عند وَقع الفتنة والعناد مؤخرًا في الشام من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف العليّة الإسلاميّة والأحكام الجليلة الشرعيّة وحيث أنّ حركته الحسنة قد استوجبت لدى سلطنتي زيادة المحفوظيّة ووقعت موقع الاستحسان ولأجل حسن توجهاتي السلطانية الحاصلة في حقّه والمكافأة العلنيّة على خدمته الخيرية الواقعة، أحسنتُ إليه بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى، وأصدرتُ له فرماني السلطاني المعلوم المؤذن بالمكارم الملوكانية في أول صفر الخير سنة سبع وسبعين ومئتين وألف".

فسُرَّ الأمير بهذا الإنعام السلطاني ورفع إلى حضرة الخليفة كتابًا يشكره فيه ويلخص له ما حدث ، جاء فيه:

" أحمدك اللهم حمد معترف بالتقصير عن شكر ما اوليت من النعم. واصلي واسلم على نبيك سيدنا محمد افضل العرب والعجم. وعلى آله واصحابه الذين شيدوا منار الاسلام. ودعائم الدين بالعدل والحسام. ثم ارفع ايدي الضراعة والابتهال. الى ربنا القدير المتعال. ان يديم النصر والتاييد لحضرة مولانا الخليفة الاعظم. والملك الاعدل الافخم. سلطان سلاطين الامم. ظل الله الممدود في العالم ناشر لواء العدل على البرية. حافظ احكام الشريعة بالهمة العلية القوية. امير المؤمنين ايد الله تعالى دولته العلية الى يوم الدين. ثم اتوجه اليه سبحانه بقلبي وتضرعي ان يوفق كافة وكلائه ووزرائه وعماله في جميع الاقطار الى تحصيل مرضاته بالتزام صفتي الصدق والاستقامة في السر والاجهار. وبعد فان العبد لم يزل قائما بوظائف الدعوات الخيرية للدولة العلية في كل بكرة وعشية متحدثا بنعم الله الظاهرة والباطنة شاكرا آلاء امير المؤمنين المترادفة في كل دقيقة وثانية مقرا بالعجز عن ايفاء بعض ماوجب عليه وعلى كل موحد في هذا الباب. سائلا من ذي الجلال العصمة عن الزيغ والاتياب. ثمّ لمّا وقعت حادثة الشام وانتُهِكت محارم الله بلا احتشام، وتعيّنَ على كل فردٍ من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد، قمتُ بأداء ما قدرت عليه من هذه الفريضة العينية؛ والنيّةُ الصحيحة في ذلك تحصيلُ رضاء الله تعالى ثمّ طاعةُ الدولة العليّة. ولما صدرت الارادة السنية بسفر صاحب الآراء الصائبة الالمعية حضرة الوزير فؤاد باشا ناظر الخارجية قدم الى دمشق وهي تفور كالمرجل وارجاؤها من تميز نار الفساد تكاد ان تزلزل فرتب العساكر المظفرة في المواقع اللازمة على مقتضى الحال وبادر بتمهيد قواعد الحكمة بلا امهال وفي اقرب وقت واقل مدة ساعدته القدرة الالهية والتوجه السلطاني امده فابرز ثمرة تدابيره من القوة الى الفعل واذهب من المدينة بنور الهدى ظلام الجهل واظهر عدل امير المؤمنين لكل باد وحاضر حتى اعلنت بذلك خطباءالاسلام على المنابر ورضي به كافة الملل والنحل من القاص والدان وطهر ذيل الشريعة المحمدية من لون اهل البغي والعدوان فجزاه الله عن امير المؤمنين والمسلمين خيرا هذا وان سيدنا ومولانا ايده الله مابرحت نعمة تتجدد على تجدد الاناء والاذهان ولم يكتف بذلك دام علاه حتى طوقني بعلامة الافتخار وهي نعمة شكرها ليس في حيز الامكان ورفع قدر مملوكه بما لست اهلا من العنايات والتلطيف مع انه يكفيني فخر النسبة بالعبودية الى مقامه الشريف

ولم ار اعظم من نعمـــــة منحت ولم تك لي في حساب
ساشكرها شكر وقت السرو ر واذكرها ذكر وقت الشباب
ايا ســـابقا بالذي لم يجل بفكري ثوابا ونعم الثـــــواب
كذا فلتكن نعم الاكـــرميـ ن تفاجيء بلا منة او طــلاب

وبناء على ذلك ابتهل الى الله تعالى بكل دعاء مستجاب ان يجعل كافة آراء دولته العلية مقارنة للسداد والصواب ويديم بقاء ذاته الكريمة الملوكية بالتاييد مشمولا بكمال الصحة والعافية الى امد مديد

بجاه سيد الوجود عليه الصلاة والسلام والحمد لله دعاء المتقين في البدء والختام اوائل ربيع الاول ١٢٧٧هـ " (الجزائري.، الصفحات ٩٦-٩٨).

عندما نقرأ رسالة السلطان عبد المجيد نجده قد عبر عن عظيم شكره ليس لمواقف الامير من المسيحيين او لانه مطابق للدين الاسلامي، على الرغم من وجود تلك الاشارة، ولكن السلطان اكد على أهمية دور الامير دفع الضرر عن دولته، والمقصود بالضرر هنا، محاولة الفرنسيين التدخل عسكريا، ووقوف الامير حائلا دون ذلك. ولعل الاخبار وصلت الى السلطان بان الامور ساءت الى درجة التدخل العسكري الفرنسي، ولم تكن الدولة العثمانية في هذا الوقت بالقادرة على صد هذا الهجوم، لانها لازالت تعاني من اثار حرب القرم (الجزائري، المواقف الروحية، ١٩٨٥) مع روسيا القيصرية، ولولا مساندة البريطانيين والفرنسيين لها في تلك الحرب لسقطت السلطنة برمتها.

رد الامير كان مركزا وشاملا لكل الاحداث، فبعد البداية الاسلامية المعتادة، نجد دعاء الامير للخليفة بالسداد والصواب ودوام نعمة الخلافة الاسلامية، واصفا اياه بامير المؤمنين وهي دعوة الى الخليفة وتذكير بواجباته تجاه رعيته المؤمنين وضرورة الحكم بالشريعة الصحيحة النابعة من روح الرحمة والسلام، القائمة على العدل والانصاف والرافة بالناس.

الابرز في الرسالة هي طريقة النصح والارشاد غير المباشرة التي لاتترك الاثر في نفس المتلقي بان المقابل ينصح كونه الاعلم والافهم ، اذ طالب الخليفة عن طريق غير مباشر توعية عماله ووكلائه في جميع ارجاء السلطنة بان يحكموا وفق الشريعة السمحاء وان يتحلوا بصفتي الصدق والاستقامة لانهما طريق الصلاح والرضا الالهي ، وان لايكون عمل الخير ملازما للرياء كان يكون في العلن فقط وانما يجب ان تكون الاعمال متطابقة في السر والاجهار .

انتقل الامير الى وصف احداث الشام بطريقة مختصرة ومركزة منذ بدايتها ، منتقدا مواقف الكثير من رجال الشام الذين كانوا اما موافقين ومؤيدين لتلك الاحداث او محايديين لايتدخلون، ماعدا القلة القليلة منهم ، إذ ذكرهم بتكليفهم وواجباتهم تجاه بلدهم واخوانهم ، اذ يتعين على كل فرد بذل كل ما في وسعه لدفع الضرر والاذى عنه وعن بلدته ووطنه واهله وجيرانه، لان ذلك من صلب التكليف الشرعي ومن اساسيات الخلق الانساني .

امتدح الامير قرارات السلطنة بارسال الوزير فؤاد باشا الذي استطاع في وقت قصير اعادة الهدوء والامن الى دمشق، وقد امتدحه الامير للقدرات التي تميز بها من حسن التدبير وسرعة الانجاز.

ثم ينتقل في الجزء الاخير الى مقابلة المعروف بالمعروف والشكر والامتنان بكلمات رقيقة تدل على عمق تبحره اللغوي وقدراته العلمية الكبيرة ، والشكر الممزوج بالنصيحة والدعاء المشروط بتوافقه مع السداد والصواب.

منحته الدول الاوربية الاوسمة الفخرية وكلها من المرتبة الاولى ، فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الابيض الروسي ، ووسام صليب النسر الاسود البروسي، ووسام المخلص اليوناني، وأهدت

اليه ملكة بريطانيا فكتوريا بندقية مرصعة بالذهب، وقد خاطبها قائلا " **انني لم أفعل إلا ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الانسانية" (الجزائري، المواقف الروحية، ١٩٨٥، صفحة ١٦).**

كان الامير حليما زاهدا ورعا، كثير التهجد والخلوات وكثير الصدقات يبر العلماء والصالحين، والفقراء برواتب شهرية وينتصب لقضاء حوائج العباد، عاملا بتقوى الله في السر والعلن يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، ويعتزل خلاله الناس، ومن شدة حب الناس له في دمشق والجزائر والبلاد الاوربية كانوا يطلبون صورته فكتب ردا عليهم:

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري فليس يريك النظم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجـــــب له همة تعلو بأخمصها النجـــما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخـاره ولكنه بالفضل والخلق الاسمـى
وان جمعت للمرء هذي وهـــذه فذاك الذي لايبتغي بعده نعـــما

(الجزائري، المواقف الروحية، ١٩٨٥، صفحة ٢٤)

الخاتمة

استقرار الامير عبد القادر الجزائري في دمشق، بعدما عاش حياته في جهاد وكفاح، جعله يعيش حياة التصوف، من قراءة القرآن والصلاة والتهجد والصيام والعبادات الطويلة فضلا عن الابحاث والدروس، واتجه نحو الزهد في الحياة، فالإسلام يجري في عروقه ودمه، ولذلك تشرب وتشبع بالمضامين الانسانية الحقة التي دعا اليها الاسلام الحقيقي، واقول الحقة والحقيقي لان الامير كان نقيا تقيا صادقا امينا وهذه الصفات ادخلت عناصر اليقين والايمان الحقيقي الى قلبه، فحاباه الله بكرامات وجاه عظيم قلة من الناس من حظي بها، ومع ذلك لشدة تواضعه وصغر الدنيا في عينه لم يأبه لكل المغريات وحافظ على مبادئه وقيمه الى اخر رمق من حياته، والتي قدم من خلالها ما يستطيعه لأمته ودينه.

من أبرز مناقب الامير في تلك الحقبة انه جعل من بيته مركزا للشورى، يستقبل ويلتقي بكل زائر، وصار يأتيه إعلام العالم الإسلامي ورجالاته ، يستشيرونه في مختلف القضايا والأمور، بما يمس واقع الأمة، بحكم أنه عالم جليل من جهة، وقائد عسكري من جهة أخرى، فأصبح الموجه لحركات الإصلاح في أرض الله الواسعة.

ان مواقفه البارزة في الفتنة التي حصلت عام ١٨٦٠ في بيروت ودمشق بين الدروز والمسلمين من جهة والموارنة والمسيحيين من جهة اخرى، جعلت العالم الغربي يعيد النظر في الكثير من حساباته تجاه حقيقة الدين الاسلامي، لا بل ان علماء المسلمين ايضا، استقوا الدروس والعبر واعادوا النظر في الكثير من المفاهيم التي اخطأوا تفسيرها وانحرف مسارها عن معانيها المقصودة.

كان موقف الامير انسانيا خالصا وروحانيا نقيا، وما قصد به الا ارضاء ربه رجاء لمغفرته واذعانا لطاعته، فحماية المدينة وحماية الناس من الفتنة، وقضاء الليل ساهراً وسلاحه في يده، يقود رجاله،

بنصرة المظلومين أو تطبيب الجرحى، أو رعاية الثكلى من النساء، مواقف لاتتكرر كثيرا ،والتاريخ خلدها بابهى واجمل الصور ، والاجمل من ذلك صدورها من رجل دين متصوف اقرب صفاته الى البداوة من التمدن، ليعطي رسالة على قدر كبير من الاهمية مفادها ان الدين الاسلامي دين الاخلاق والقيم والمباديء والعمل الجاد والسماحة والرأفة والتعايش، وليس دين القسوة والعنف والجهاد المزيف والقتل والتمثيل والسلب والنهب، فتلك المواقف البطولية، كشفت عن نصاعة الدين وازالت الصدأ عن واجهاته.

انما الرجال بالافعال لا بالاقوال وكثيرا ماترفع شعارات وتتعالى الاصوات بالمبادي والقيم والنزاهة والشرف والشجاعة والاقدام وحسن السلوك والدعوة الى الزهد ولاسيما من بعض الخطباء والرجال المحسوبين على الدين، ولكنهم عند التطبيق العملي لاتجد منهم احدا، وكأن كل تلك الكلمات التي قالوها كانت من الخيال وليست من الدين، وهذه من عجائب الامور وغرائبها، فتجد نماذج هؤلاء منذ زمن الامير عبد القادر في القرن التاسع عشر، والى حاضرنا اليوم وقد زادوا وانتشروا في اغلب بقاع العالم ، في حين نفتقد اليوم نموذج صنف الامير الذي يتحلى بالشجاعة والاقدام وحسن التدبير والالتزام، خلقا اسمى وعلما جما ، ينشر لنا ديننا الحنيف بصورة بهية وعقلية جلية ومواقف فعلية مضمونها الانسان ومحتواها الايمان ومصدرها القرآن.وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

References

1) Ahmed Tarbin. (1968). Lebanon from the era of the Mutasarrifate to the beginning of the Mandate era. Cairo: Institute of Arab Research and Studies.
2) .Ahmed Abdel Rahim Mustafa. (1982). In the origins of Ottoman history. Beirut: Dar Al-Shorouk.
3) .Prince Abdelkader bin Muhieddin Al-Jazaery. (1985). Spiritual positions. Beirut.
4) .Prince Abdelkader bin Muhieddin Al-Jazaery. (2004). Spiritual positions and divine bounties. Beirut: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyyah
5) .Al-Hasani, Muhammad Pasha bin Prince Abdelkader Al-Jazaery. (undated). Tuhfat Al-Zaer
6) .٦Bazili, tr. Dr. Yasser Jaber. (1988). Syria, Lebanon and Palestine under Turkish rule. Beirut-Lebanon: Dar Al-Hadatha.
7) .Barakat Muhammad Murad. (1992). Prince Abdelkader Al-Jazaery, the Sufi Mujahid. Batna-Algeria: Dar Al-Nashr Al-Electroni.
8) .Bruno Etienne. (1977). Emir Abdelkader Al-Jazaery, Dar Attia for Publishing.
9) .Bushra Khairbek. (2012). A Study of Some Fallacies and Contradictions in Historical Sources. Damascus: University of Damascus.
10) .Charles Henry Churchill. (1971). The Life of Emir Abdelkader, translated by: Abu Al-Qasim Saadallah. Tunis: Tunisian House for Publishing.
11) .Abdul Razzaq Al-Baytar. (1970). The Ornament of Humanity in the History of Notables of the Thirteenth Century. Damascus.
12) .Abdul Raouf Sano. (1985). Russian-Ottoman Relations. Beirut: Journal of Arab and World History.
13) .Abdul Aziz Salman Nawar. (1978). The Lebanese Crisis. Cairo: Arab Organization for Education, Culture and Science.
14) .Issam Khalifa. (1985). Research from the History of Contemporary Lebanon. Beirut: Dar Al-Jeel Beirut.
15) .Philip Hitti. (1972). History of Lebanon. Beirut - Lebanon: Dar Al Thaqafa.
16) .Kamal Salman Salibi. (1972). History of Modern Lebanon. Beirut - Lebanon: Dar Al Nahar Publishing.
17) .Muhammad Pasha bin Emir Abdelkader Al Jazairi Al Hasani. (1903). The Visitor's Gift in the Exploits of Emir Abdelkader and News of Algeria. Alexandria - Egypt.
18) .Mikhael Mashaqa. (1908). Eyewitness Scene of the Incidents of Egypt and Lebanon. Egypt: Melhem Khalil Abdo and Andraos Hanna Shakhashiri.
19) .Melhem Khalil Abdo and Andraos Hanna Shakhashiri. (1908). Mikhael Mashaqa, Eyewitness Scene of the Incidents of Syria and Lebanon. Egypt.
20) .Nizar Abaza. (1994). Emir Abdelkader Al Jazairi - The Mujahid Scholar. Beirut - Lebanon: Dar Al Fikr Al Mu'aser.